كَيْفَ نُنْجِحُ مُظَاهُرَةَ الجَماهِير

منذ بداية سنة 2011، تَحُثُّنَا الثورات الجارية في بعض البلدان العربية (تونس، مصر، اليمن، ليبيا، سوريا)، وكذلك "حركة 20 فبراير" بالمغرب، تَحُثُّنَا إلى **مراجعة، أو تدقيق، الكثير من أفكارنا المألوفة**.

النضال السياسي هو عمل يهدف إلى **تغيير المُجتمع**. وتغيير المجتمع في اتجاه التقدّم المُجتمعي، لا يمكن أن يتحقّق بأساليب عمل عَفْوِية، أو تِلْقائية، أو عشوائية، أو اعتباطية، أو مُرتجلة، أو مُتَهَوّرة، أو فَوْضوية. فَلِكَيْ نُقوّي حظوظ نجاحنا في تغيير المجتمع، يلزمنا **أن ندرس المجتمع بِطرق عِلمية ودَقيقة**. كما يلزمنا أن نُرَاعِي في نضالاتنا السياسية الجماهيرية العُلومَ، أو **القواعدَ، التي تتحكّم في تطور المُجتمع**. والوثيقة الحالية تستعرض بعض "القواعد" (أو القوانين) التي تُحدّد حظوظ نجاح أو فشل أحد الأساليب النضالية الأساسية، وهذا الأسلوب النضالي هو "المُظاهرة الجماهيرية". وتهدف الاقتراحات، أو الأُطْرُوحات، المُدرجة في هذه الوثيقة، إلى الرّفع من مستوى فعالية "المُظاهرة الجماهيرية". ولا يكفي أن يلتزم بهذه القواعد المناضلون المسئولون أو القياديون فقط، بل يلزم أن يعرفها كل المناضلين المُساهمين في هذا النضال، وأن يأخذوها بعين الاعتبار في كل تحرّكاتهم النضالية.

1) ما يمنع الجماهير من مقاومة الاستبداد، هو على الخصوص : بقاء المواطنين غارقين في **الفَرْدَانِيّة**، أو **الأنانية**، أو في **الخوف** من قمع الدولة. فَلاَ تستطيع الجماهير أن تتجرّأ على النضال ضد نظام استبدادي ما دام المواطنون غارقين في أساليب

تفكير فَرْدَانِيّة، أو أنانية، أو انتهازية، أو حَلَقِيّة. ينبغي تشجيع المواطنين على الثقة في قوّة الشعب. يجب أن نَحُثّهم على فهم أن قُوّات القمع هي "نمر من ورق" بالمقارنة مع الشعب. كما يلزم تشجيع المناضلين والمواطنين على **التّعاون** فيما بينهم، وعلى **التّضامن**، وعلى **التّكامل** فيما بينهم، وعلى **الثّقة** فيما بينهم، وعلى **التّوَحُّد** من خلال **النضال العملي المُشترك**. أخطر الأشياء على الشعب : إثنان، هما أولا تَشْتِيت قواه التقدمية، وثانيا الخوف المبالغ فيه من قُوّات القمع.

2) لا يكفي أن تُقَرّر جماعة من المناضلين تنظيم مُظَاهرة جماهيرية لكي تنجح تِلْقَائيا هذه المُظاهرة. ولو كانت مُبرّرات هذه المظاهرة مشروعة، أو مَنْطقية، أو مُقنعة. يجب على الجماعة الدّاعية إلى مُظاهرة جماهيرية **أن تُفَكّر جَيّدًا في جميع تفاصيل** هذه المُظاهرة، و**خلال مُدّة كافية** من الوقت، وأن **تُهَيّء جميع اللّوَازِم** الضرورية لنجاح المُظاهرة.

ونذكر **من بين قضايا المُظاهرة التي يلزم دراستها** بعناية كبيرة : 1) التاريخ، 2) الوقت، 3) المكان، 4) المَسار، 5) الشّعارات، 6) المطالب، 7) أسلوب المسيرة، 8) شكل الوقفة، 9) الفِرْقَة أو الفِرَق التي تُسَيّر المُظاهرة في ميدان حدوثها، 10) تحديد الجماهير التي تعنيها هذه المُظاهرة، والتي يُتَوَقّع أن تُشارك فيها، 11) اختيار وسائل الإتصال المُلائمة لإخبار هذه الجماهير المعنية بالمُظاهرة، 12) الأساليب الفنية في التظاهر، 13) فِرَق الإعداد للمُظاهرة، 14) تمويل النّفقات (اللوجستيكية) الضّرورية، 15) الحملة الإخبارية (لإخبار الناس بالمظاهرة)، 16) مُختلف أشكال تّعبئة الجماهير المَدعُوّة للتّظاهر، 17) الإتّصال بالمُؤسّسات والهيئات المَدعُوّة للمُشاركة في المُظاهرة، 18) إقناع الأحزاب والنقابات والجمعيات والشّخصيات بالمشاركة، 19) مكبرات الصوت، 20) المنشورات، 21) اللاّفِتَات، ومن يتكلّف بحملها، 22) فرق ضبط التّنظيم، 23) فرق الدّفاع السّلمي عن المُظاهرة، 24) فرقة المُستعجلات الأمنية، 25) فرقة الاسعافات الطّبية الأوّلية، 26) وسائل النقل، 27) تصوير أو توثيق المُظاهرة، 28) تهييء التّغطية الإعلامية للمظاهرة، 29) كيفيّة التعامل مع الصحافة، 30) كيفية التعامل مع قوى القمع، 31) كيفية التّعامل مع "البَلْطَجِيّة"، 32) كيف تتفرّق المُظاهرة، 33) تجميع الأدوات

المُستعملة، واسترجاعها بعد نهاية المظاهرة، 34) تقييم المظاهرة السابقة، 35) استخلاص الدّروس من المظاهرة السابقة، إلى آخره.

3) ولتوضيح الفكرة، لنفحص مَثالاً واحداً (من بين القضايا المُشار إليها في الفقرة السابقة)، وَهُو عُنْصُر واحد فقط من بين عشرات العناصر الضرورية لتهييء المُظاهرة : وهو **الحملة الإخبارية**، أو الإعلامية، اللاّزمة لإيصال خبر تنظيم المُظاهرة إلى **الجماهير المعنية بهذه المُظاهرة**.

والتجربة تُبَيّن أن المُدّة الضرورية **لإخبار الجماهير المعنية بهذه المُظاهرة** لا يجوز أن تَقِلّ عن أسبوعين أو ثلاثة. لأن إيصال الخبر بطيء، ويتطلّب وقتا كافيا.

وخلال هذه المُدّة، يجب النضال بهدف الاستعمال المُكَثّف لكل وسائل الإعلام المُتاحة، ومنها : التّلفزات (ولو كانت أجنبية أو للغير)، الإذاعات، الجرائد (كل الجرائد)، الأنترنيت {بجميع إمكاناته، من مواقع إلكترونية (Sites)، ومُدَوّنات (Blogs)، وشبكات اجتماعية (Réseaux sociaux)، ورسائل (E-mail)، إلى آخره}، المُلصقات الحائطية، اللاّفتات، المنشورات، "الفراشات" (Flyers، أي منشورات صغيرة الحجم)، تداول الخبر داخل مختلف المُؤسسات (الإعلام، الأحزاب، النقابات، الجمعيات)، وكذلك انتشار الخبر من شخص إلى آخر (عبر التّبْليغ الشفوي)، إلى آخره.

وكل مناضل (أو مجموعة من المناضلين) تَكَلّف بإحدي هذه المهام، يجب أن ينجزها كاملة، وفي الوقت المُحَدّد لها، وبدون أدنى تهاون.

فإذا استطعتَ مثلا، خلال 15 يوما، أن تُوصِل الخبر إلى قُرابة خمسين ألف شخص من بين الجماهير المعنية بهذه المظاهرة، فلا يحقّ لك أن تَنْتظر مُشاركة أكثر من قُرابة ألفي شخص. أما إذا استطعتَ إخبار قرابة 5 ملايين شخص من هذه الجماهير المعنية، آنئذ يحق لك أن تنتظر مُشاركة قرابة عشرين ألف شخص. أما إذا أخبرتَ فقط ألف شخص، فلا يحقّ لك أن تنتظر حضور أكثر 100 أو 200 شخص. هذه المُعطيات تُبيّن تأثير **الحملة الإخبارية** على مدى نجاح المُظاهرة.

4) مثلما نَحْتاج لجميع أنواع المُواطنين لتكوين شعب، نحتاج كذلك **لجميع أنواع المناضلين**، لإنجاح مُظاهرة الجماهير. ولِكَي تنجح مظاهرة الجماهير، يلزم أن يُشارك فيها أكثر ما يمكن من المناضلين، المُنتمين إلى مُجمل الأحزاب التقدمية، والتيارات، والجماعات، والجمعيات. ونحتاج كذلك إلى المُواطنين التّقدّميّين غير المُنتمين، أو غير المُحَزّبين، ودون إقصاء أي فاعل سياسي تقدمي. الشيء الذي يتطلب **تجاوز المنطق الحزبي الضَّيّق**. كما يتطلب تجاوز "**عصبية**" الجماعات، أو التيارات، أو الذاتية الشخصية.

يجب أن لا ننسى أنه، في المرحلة الحالية، لا يستطيع أي حزب سياسي، ومهما كان، أن يَنْجح هو وحده في تنظيم "مظاهرة جماهيرية حاشدة". هل باستطاعة أي حزب كان في المغرب أن يخلق حركة نضالية جماهيرية مثل "حركة 20 فبراير" ؟ لا، هذا غير ممكن. بل "حركة 20 فبراير"، بطابعها الشبابي أو التلقائي، هي التي خلقت مناسبة نضالية تلتقي فيها العديد من الأحزاب والتيارات المُختلفة. لأن الحزب يفكّر بمنطق حزبي ضيّق، وهذا المنطق الحزبي يبقى في غالب الحالات محدودًا في دِينَامِيكِيّته. لذا يجب **أن تتعاون مجمل الأحزاب** التّقدّمية لكي يحظى مشروع هذه المظاهرة بحظوظ كافية للنجاح.

زيادة على ذلك، يجب أن نعرف أن الجماهير تميل إلى **الهروب من الأنشطة النضالية التي تكون ذات طبيعة حزبية ضيّقة**، أو التي ينظمها حزب واحد، أو حزبان. أمّا إذا دعى مثلا إتلاف من الأحزاب، أو النقابات، أو الجمعيات، المُتعدّدة، والمُتَنوّعة، إلى نشاط نضالي، فإن عامّة الجماهير تقبل بسهولة نسبية أكبر أن تُشارك فيه. لأن **الجماهير تُفضّل الأنشطة التي يكون المُشاركون فيها مُتنوّعون ومتعدّدون**. كما أن الجماهير تقبل بسهولة نسبية أكبر المشاركة في الأنشطة النضالية التي **لا** تكون ذات طابع حزبي. أما الأنشطة النضالية التي تتحوّل إلى طقوس لتمجيد حزب مُحدّد، أو لتعظيمه، أو لتقديسه، فإن الجماهير تنفر منها، ولا تقبل العودة إليها مرة أخرى.

ولكي تكون مشاركة الجماهير في المُظاهرة قويّة أو فعّالة، يجب على كل مناضل مشارك في المظاهرة **أن يدافع أولا وقبل كل شيء على مصالح الشعب، وليس على المصالح الضيقة الخاصة بحزبه، أو بتياره، أو بجماعته**. الهدف هو تَمَتُّع الشعب

بالحرية، وبالكرامة، وبالعدالة، وبالديمقراطية، وبالشّغل، وبالتّنميّة. أما الحزب، **أي حزب كان، فهو ليس هدفًا في حد ذاته، وإنما هو مجرد وسيلة سياسية** من بين العديد من الوسائل النضالية المُتكاملة.

وهذا الطرح ليس ضدّ الأحزاب، ولا يدعو إلى إلغاء دورها. على عكس ذلك الظن، فإن الأحزاب التّقدّمية، بقدر ما تعمل بروح مَرِنَة، دون السقوط في المنطق الحزبي الضّيّق، تصبح الجماهير ميّالة أكثر إلى تقدير هذه الأحزاب، أو إلى احترامها، أو تبنّيها، أو الإنخراط فيها. فتتقوّى هذه الأحزاب التّقدمية، ويصبح دورها أكثر فعالية في المجتمع.

5) يمكن أحيانا أن تُشكّل **لحظة بداية انطلاق المُظاهرة** فترة ضعف. وقد تحاول قوى القمع استغلال هذا الوقت الخاص لتمنع المظاهرة بالقوة. فتلجأ قوى القمع إلى الهجوم على المتظاهرين، وإلى تفريقهم بطريقة عنيفة، وتضربهم بالهراوات، أو تُطاردهم عبر الشوارع، أو تعتقل مؤقتًا بعض المناضلين البارزين لضربهم، أو لترهيبهم.

ولتلافي فشل المظاهرة في مثل هذه الحالات، نُحَضّر قَبْلِيًا المظاهرة لكي تسلك الأساليب التّالية : (أ) يجب على المتظاهرين أن يحرصوا على أن يلتقوا في مكان انطلاق المظاهرة، وفي الوقت الدقيق المُحدّد لها، **بأعداد تفوق بكثير** عدد عناصر قوى القمع المُرتقبة. (ب) يجب على المتظاهرين أن يحرصوا على أن يأتوا إلى مكان انطلاق المظاهرة **من جهات مختلفة**، وعبر شوارع متعدّدة. (ت) حينما تحاول قوى القمع تفريق المتظاهرين بالقوة، يحرص المتظاهرون على **عدم تشتيت صفوفهم**. ويحرص المُتظاهرون على **البقاء في مكان المظاهرة، ويرفضون مُغادرته**. ويحرصون على **البقاء على شكل جماعة واحدة، كبيرة، ومتماسكة**. (ث) ويقوم المتظاهرون **بحركة دائرية** في ساحة التّظاهر، ودون مُغادرتها. (ج) إذا برزت عناصر بوليسية تتميّز بِعُدْوَانيّتها، تُطَوّقها جماعة كبيرة من المناضلين، فتخاف هذه العناصر البوليسية على نفسها، وتنقص من عُدْوَانِيّتها. (ح) كُلّما أحسّت عناصر قوى القمع بأنها جماعة كثيرة العدد، ومتماسكة، فإنها تشعر بالقوة. فتميل إلى الهجوم، وإلى استعمال القوّة، والعنف. وعندما تحسّ عناصر قوى القمع بأن عددها يَقِلّ عن عدد المُتظاهرين، أو عندما

تُحِسّ أنها مُشتّتة، أو محاصرة من طرف عدد كبير من المتظاهرين، فإنها تشعر بالضعف، أو بالخوف، وتميل في هذه الحالة إلى السّكينة، أو المُهادنة. فلا تتراجع قوى القمع إلا حينما ترى أن المتظاهرين يتفوّقون عليهم بالعدد، وبالتنظيم، وبالعزيمة، وبالإصرار على التظاهر.

6) قد يحدث أحيانا أن قوى القمع تعرف أخبارا كثيرة عن المُظاهرة، قبل وقوعها. وقد تُعلن منعها. فتحضر قبل الموعد المُحَدّد إلى مكان المظاهرة، وتاتي بقوات مُتنوّعة، كثيرة، ومُجهّزة. وتمنع انطلاق المظاهرة. وتلجأ إلى تفريق المُتظاهرين بالقوة، فَتُهاجم المتظاهرين، وتُشَتّت جماعاتهم، وتلاحقهم حيثما تجمّعوا في الشوارع المُجاورة، وتضربهم بالهراوات، وتُصيب مُتظاهرين مُتعدّدين بِجروح، أو بِكُسُور. وتعتقل آخرين. وقد يستغرب الكثير من الحاضرين والمُراقبين من **لجوء الدولة إلى هذه القوة المُفرطة**. وقد يدينون أساليب البطش، أو القمع، أو القهر.

وحتى في مثل هذه الحالة التي تَمنع فيها قوى القمع المظاهرة من الانطلاق، فإن المظاهرة لا تُعَدّ بالضرورة فاشلة، أو مضيعة للوقت. لماذا ؟ لأن **محاولة التظاهر المقموعة تفضح الطبيعة القمعية للدولة** ! ولأن لجوء الدولة إلى استعمال أساليب قمعية غير مُتكافئة مع الحركات النضالية السّلمية يكْشِف الطبيعة الاستبدادية لهذه الدولة. ولأن منع الشعب من حقّه في التظاهر، أو حرمانه من حقّه في التعبير عن آراءه، يفضح أن هذا النظام السياسي القائم يُمارس إرهاب الدولة على الشعب ! فكل مظاهرة مقموعة تُعد نقطة سلبية للدولة. وهذا مكسب إيجالي يُعدّ في صالح الحركات النّضالية.

زيادة على ذلك، فإن الإجراءات التي تتخذها الدولة لقمع المظاهرات، تُكَلّفها كثيرًا من المجهودات، والمتاعب، والنفقات، والوقت، والمُعدّات. فهذا القمع يُرهق الدولة، ويُنهكها، ثم يُضعفها. بالإضافة إلى أن سمعة الدولة على الصعيد العالمي تصبح مُشوّهة، ومقرونة بالاستبداد.

واعتبارًا لهذه الرّؤْية، نقول أنه، رغم تعرّض المظاهرة للقمع أو للمنع، يجب على المناضلين أن يستمرّوا في محاولات تنظيم مُظاهرات أخرى مُتوالية، ومُتواصلة، حتى يحقّقوا مجمل مطامحهم النضالية.

7) أثناء كل حركة نضالية، أو مُظاهرة جماهيرية، يجب على المناضلين أن يتذكّروا أن هذه الجماهير (المُشاركة في هذا النضال)، تتكوّن من فئات اجتماعية **مُختلفة**، **تَتَفَاوَتُ** في مصالحها، و**تتمايز** في وعيها، و **تختلف** في قَنَاعَاتِها، وفي استعداداتها النضالية. فلا يصح أن يحاول بعض المناضلين جَرّ هذه الجماهير إلى رفع شعارات من مستوى مرتفع جدا، أو إلى خوض أفعال نضالية جذرية، تتجاوز قناعات هذه الجماهير، أو تفوق استعداداتها النضالية في المرحلة الراهنة.

من الأحسن أن يسير المناضلون حسب قُدُرات الفئات الجماهيرية الأقل استعدادا للتضحية، مع الحرص في كل فترة على **حَثّ هذه الجماهير، شيئا فشيئا، ودون أية مُبالغة، ودون أي تَسَرّع، على الإرتقاء نحو مستوى مُتقدم نسبيا من النضال**. ونُعبّر عن هذه الفكرة بالقول التالي : «سِيرُوا بِخُطَى ضِعَافِكُم» ! أي لا تمشُوا بِإِيقَاع يكون أسرع، أو أكبر، من خطوات الجماهير العادية، أو الأقل استعدادا للنضال. وبعد انخراط الجماهير في أسلوب نضالي أوّلي أو ابتدائي، يمكن للمناضلين أن يعملوا تدريجيا على تشجيع هته الجمااهير على التَّجَرُّؤ على **خوض نضالات أكثر فأكثر تَقَدّما، وذلك حسب تصاعد وعي هذه الجماهير**، وفي ارتباط بتزايد استعداداتها لنضال من مستوى أعلى.

أمّا إذا حاول بعض المناضلين رفع شعارات جذرية، أو حاولوا فرض مستوى نضالي مُرتفع، يفوق الاستعدادات النضالية الحالية للجماهير، فإن هذه الجماهير سوف تهرب من هؤلاء المناضلين، وسوف تَبْتَعِد عن ذلك النضال، وقد تعتبر هذه الجماهير أن هؤلاء المناضلين يَنْقُصهم النُّضْج السّياسي، ويمكن أن تُحِسّ هذه الجماهير بأن هؤلاء المناضلين يريدون التّلاعب بها، أو أنهم يريدون أن يَزُجُّوا بها في مغامرة غير محسوبة العواقب.

8) بغض النظر عن مستوى جَوْدة هذا الحزب أو ذاك، يوجد على العموم **نوعان من المناضلين**. **النوع الأول** يتمتع **بخصال حميدة** وسَلِيمَة، تُساعده على **تجميع، أو تقريب، أو توحيد، أعدادا مُتزايدة من المناضلين**، أو من المتعاطفين، أو من

الجماهير. فَيُقنعها (ذلك النوع الأول من المناضلين) بسهولة نسبية على الانخراط في حركات نضالية مُوَحّدة، ومُتَزَايِدة الاتساع.

أمّا **النوع الثاني** من المناضلين فَيتميّز بضعف مهارته السياسية، أو بكون نضجه السياسي ابتدائيا. فتراه يرتكب أخطاء سياسية مُتوالية، مثلا عبر التعالي على الجماهير، أو عبر الطموح إلى بناء زَعَامِيّته الشخصية، أو عبر محاولة جني فوائد مادّية خاصة، أو عبر تصفية حسابات ذاتية، أو عبر إتّهَام مناضلين آخرين باتهامات كاذبة أو مُبالغ فيها، أو عبر تَجْرِيح عواطفهم، أو عبر إقصائهم، أو عبر إهانتهم، أو عبر محاولة خِداعهم، إلى آخره.

النوع الأول من المناضلين تكون له فعالية سياسية ونضالية ناجحة، ويكون مُفيداً للحركة النضالية العامّة، بينما **النوع الثاني** من المناضلين يبقى يتخبط في صعوبات متعددة، أو في عزلة نسبية، ويتسبّب في أضرار تُضعف الحركة النضالية العامّة.

وعلى خلاف بعض الاعتقادات، فإن جماهير الشعب لا تقبل من أي مناضل، أو حزب، أو حِرَاك سياسي، أن يخالف المباديء النّبيلة، أو أن يتعارض مع الأخلاق الحميدة، أو مع القوانين العادلة. **فكل مناضل أو حزب يسمح لنفسه باستعمال التّحايُل، أو الكذب، أو الغِشّ، أو الخِداع، أو النّفاق، في علاقته بالجماهير، يكون مآله بالضرورة هو الفشل، والعُزلة**. لذا يجب على كل المناضلين أن يَتَحَلّوا بالإستقامة، وبالصِّدْق، وبالنّزاهة، وبالشفافية، وبالنّية البَنّاءة. أما المناضلين الذين يسمحون لأنفسهم باستعمال المُناورة، أو الخِداع، أو الغشّ، فإن الجماهير سوف تُصَنّفُهم، آجلا أم عاجلا، ضمن لائحة المُتَخَلّفين، أو المَنْبُوذِين، أو الإنتهازيين، أو المُجرمين.

9) من مصلحة الشعب أن يبقى الصراع ضد نظام استبدادي في المجال السياسي **السِّلْمِي**، وأن لا يتحوّل إلى المجال العنيف، أو المُسلّح، أو العسكري. (تَذَكّر مثلا السّهولة التي قُمِعَتْ بها الحركات النضالية المُسلّحة خلال سنة 1973 في المغرب. وتذكّر أيضا الخسائر الكبيرة في الأرواح، وفي البنيات التّحتية، التي حدثت في تجربة ليبيا خلال سنتي 2011 و 2012، وتذكر النتائج المُعقّدة لتدخل حلف "الناتو" [OTAN] في ليبيا. وقَارِن أيضا بين عدد القتلى في ثورة تونس ومصر السّلميتين [بضعة عشرات]، وبين عدد القتلى في ثورة سوريا [أكثر من 100 ألف]).

أحسن طريقة لمقاومة الاستبداد السياسي، هي خوض **نضالات سلميّة (أي غير عنيفة)، تُعبّيء أعدادًا متزايدة من الجماهير، وتتواصل طويلاً، و تدوم أسابيع، أو شهورا مُتتابعة، حتى يَنْحَلَّ النظام المُستبد، أو حتى يَسقط** (مثلما حدث في إيران خلال حكم الشّاه في سنة 1971، أو في تونس، أو في مصر، أو في ليبيا، خلال سنة 2011). على المتظاهرين والمُحتجين أن يَمْتَنِعُوا عن استعمال الحِجارة، أو السّكاكين، أو التّكْسِير، أو الإحراق، أو أية أسلحة أخرى. و**كل جماعة تُمارس العنف في نضالها، تهرب منها بقيّة الجماهير** العاديّة، فتصبح تلك الجماعة معزولة، ويسهل على الدولة الاستبدادية أن تُطَوّقها، وأن تركّز عليها قِواها القمعية، أو العسكرية، لكي تسحقها، باسم "حفظ الأمن"، أو باسم "مكافحة العنف الخارج عن القانون"، أو باسم "مواجهة الإرهاب". (تذكّر أن الحُكّام المستبدّين أمثال الحسن الثاني في المغرب، ومُعَمّر القذافي في ليبيا، وعلي عبد الله صالح في اليمن، وبشار الأسد في سوريا، كانوا كلّهم يَدّعون زُورًا أن الجماهير المتظاهرة مُحرّكة من طرف تنظيمات إرهابية، أو تَخْريبيّة، وذلك بهدف تبرير قمعها بالجيش، وبالسّلاح).

10) **السّر في فعالية النّضالات الجماهيرية السّلمية**، هو أن هذا الشكل من النضالات (غير العنيفة) **يمنع النظام الاستبدادي من تبرير استعمال القوى القمعية**، أو العسكرية (أي العنيفة)، التي يتوفّر عليها. فيصبح هذا النظام الاستبدادي حائرا، ضعيفا، وتصبح قواه القمعية أو العسكرية بلا منفعة. ويصبح هذا النظام الاستبدادي غير قادرا على الاستمرار في فرض إرادته، أو تمرير أكاذيبه.

وفي حالة إذا ما أصرّ النظام السياسي القائم على ضرب أو تعنيف المُتظاهرين السّلميّين بقواه القمعية، رغم تمسّكهم بأساليب نضالية سلميّة، فإن هذا النظام يفضح في هذه الحالة عدم تقيّده بالقوانين، ويُبيّن أنه يسيء استعمال السّلطة، ويُبالغ في استعمال القوة، ويكشف استهتاره بحقوق الانسان، ويبدي للعيان عدم التزامه بقواعد الديمقراطية، ولا يحترم حق الجماهير في التّعبير والتّظاهر، ويُشوّه سمعته على الصعيد العالمي، ويدفع أعدادًا مُتزايدة من جماهير الشعب إلى استنكار تصرفاته الهمجية، وإلى التنديد بأساليبه الإستبدادية. فيحظى في هذه الحالة

المتظاهرون والمناضلون بتعاطف الشعب، ويحصلون على دعمه لهم.

11) ما العمل إذا أَصَرَّ نظام سياسي استبدادي على قمع المظاهرات الجماهيرية السّلمية بوسائل عنيفة أو عسكرية ؟

أولا، يجب **تلافي مجابهة العنف بعنف مُضاد**، خلال أكبر مُدة مُمْكِنة. وهذا أمر مُمكن، ولو أنه صعب الإنجاز، وقد لا يَتَحمّله بعض المناضلين المُفْرِطين في الحماس، أو الذين يستعملون العواطف أكثر مِمّا يستعملون العقل.

ثانيا، يلزم إتخاذ جميع الإحتياطات اللازمة **لتسجيل** كل عملية قمعية عنيفة، بالصورة، وبالصوت، وبالشهود. (ومن هنا تبرز أهميّة تصوير نضالات ومظاهرات الجماهير بالآلات المُصوّرة الرّقمية، سواءً كانت كاميرات علنية أم خَفِيّة). ويجب **فضح هذا القمع** فورًا على شبكة الأنترنيت، على الصعيدين الوطني والعالمي. الشيء الذي يُسهّل تعاطف الرأي العام الدّوَلِي مع الشعب المُنتفض.

ثالثا، يجب إبداع أشكال نضالية، مباشرة وغير مباشرة، لحثّ أفراد القوى القمعية على **عدم تنفيذ** الأوامر القمعية، أو تشجيعها على **التّعاطف** مع المتظاهرين، أو على **الانشقاق** عن القوى القمعية، بهدف **الإلتحاق** بصفوف الشعب الثائر. وهذا أيضا أمر مُمكن، ولو أنه بطيء، وَصَعْب التّحقيق.

رابعا، ينبغي **الصمود** والاستمرار في التظاهر السّلمي، رغم كل المِحَن، لأن استمرار المظاهرات والاحتجاجات السّلمية هو الذي يُسَرّع عملية إضعاف النظام الاستبدادي، ويقلّص شرعيته، ويُعمّق تناقضاته الداخلية، ويجبره على التراجع.

12) ما العمل إذا تَصَلّب أو تَعَنّت نظام استبدادي في رفضه لمطالب الجماهير الحاشدة المتظاهرة ؟ في هذه الحالة، يكفي هذه الجماهير **أن تصمد في تَعْبِئَتها**، خلال أسابيع، أو شهور مُتوالية (مثلما حدث في إيران خلال سنة 1971، أو في تونس، أو مصر، أو اليمن، أو سوريا، خلال سنة 2011، ثم خلال سنة 2012). في حالة مثل هذا التّعنّت، يجب على الجماهير **أن تُواصِل تظاهراتها السّلمية**، والحاشدة، لكي تهزم هذا النظام. عليها أن تخوض الإضراب العام، أو العِصيان المدني، أو الإمتناع

عـن أداء الضـرائب، أو مـا شـابه ذلـك. لأنـه، بقـدر مـا تَتَوَاصَـل المظاهرات الشعبية، السلمية، والحَاشِدة، بقدر ما **تتكاثر نفقات هذا النظام، وتتعطّل أجهزة الدولـة**، وتضـعف فعاليتهـا، وتنفضـح أكاذيبها، وَتَتَوَقّف آلياتها، و**تَتَضَخّم خسائرها الغير مرئية**، و**تنهـار شـرعيتها**، فتُصبح الدولـة مُجـبرة علـى تقـديم تنـازلات، أو يصـبح رئيسها مجبرا على تقديم الاستقالة، أو على الرّحيل، أو الفِرار.

13) على المتظاهرين أن يكونوا مستعدين **للإستمرار** في تنظيم المظاهرات ضدّ الفساد، أو ضدّ الاستبداد، بدون توقف، **وَلَوْ** تعرّض المتظاهرون للمنع، أو للضرب، أو للاعتقال بأعداد مُتزايدة وكبيرة. (مثلا، في سنة 1971 في إيران، إبان المظاهرات المطالبة بإسقاط نظام شاه إيران، كانت الجماهير تستمر يوميا في التظاهر السّلمي، بالرغم من أن البوليس كان يعتقل في كل يوم المئات أو الآلاف من المتظاهرين. وفي النهاية، ورغم اعتقال أزيد من مائة ألف مُواطنين، وأمام زخم المظاهرات واستمراريتها، أضطرّ شاه إيران إلى الهرب من البلاد).

ويجب على المتظاهرين أن يتذكّروا أنه، سَوَاءًا سمحت الدولة لهم بالتظاهر، أم أن الدولة أجهضت المظاهرات، أو منعتها، أو قمعتها، فإن **الدولة المُستبدّة تخسر دائما أشياء كثيرة غير مرئية**، بل **تخسر أكثر من المتظاهرين**، وذلك **مثلا** على مستوى ثقة المستثمرين في استقرار البلاد، أو على مستوى نشاط السياحة، أو البُورْصَة، أو على مستوى سمعة الدولة، أو على مستوى صورتها العالمية، أو على مستوى شرعيتها، في مجال الديمقراطية، أو في ميدان حقوق الإنسان، إلى آخره. فَكُلّما وقعت مظاهرة سياسية، أو كلما قُمِعَت هذه المظاهرة، فإن شرعية النظام السياسي القائم **تفقد نُقَطا متزايدة**.

14) عندما تُقْدِم أعداد كبيرة من المواطنين على **رفض التّعاون** مع أجهزة النظام الاستبدادي القائم، في أي مجال من مجالات الأنشطة المُجتمعية، فإن هذا النظام **يضعف** أكثر فأكثر، إلى أن يزول.

15) أحسن ما ينبغي فعله تجاه القوى العسكرية، أو تجاه القوى القمعية، التابعة لنظام استبدادي، ليس هو تَحَدّيها، أو التّصادم معها، أو الهجوم عليها، وإنما هو **دفع عناصرها إلى**

التعاطف مع الشعب، وحَثّها على عدم استعمال العنف ضد المتظاهرين، ودَعْوتها إلى عدم استعمال السلاح ضد المُحتجين السّلميّين. وهذا الأمر يكون طبعًا في البداية صعب التحقيق. لكن يلزم أن نستمرّ في مُحاولة إنجازه.

وأقلّ شيء ينبغي فعله، هو تشجيع عناصر القوى القمعية على **أن تكون غير فعّالة في تطبيق الأوامر** التي تتلقّاها من رؤسائها. الهدف هو **أن يُحس أفراد قوات القمع أن مصالحهم توجد إلى جانب القوى المُناضلة**، وليس إلى جانب النظام المُستبد.

16) استمرار مظاهرات المواطنين الحاشدة، وغير العنيفة، وتَوَاصُل الاحتجاجات، والاعتصامات، ورفض التعاون مع مؤسسات الدولة، ثم الإضراب العام، والعصيان المدني، ورفض أداء الضرائب، هي من بين **أساليب النضال** السّلمي الأكثر **فَعَاليّة** ضد الاستبداد السياسي (وإن كانت غير الوحيدة). إنها أساليب تستطيع خلق حركة ديناميكية تُؤدّي في آخر المطاف إلى الإطاحة بنظام دكتاتوري.

17) لا يصحّ أن ينحصر النضال ضد نظام استبدادي فقط في مجال محاولة إسقاطه. بل ينبغي، في نفس الوقت، أن **تُوَسّع أهداف** هذا النضال لكي يشمل مهام **تهيئ أسس نظام سياسي ديمقراطي جديد، بديل**، عبر إشاعة قِيَم وممارسات من نوع جديد داخل صفوف الشعب، وذلك لكي لا تنبثق الدكتاتورية من جديد من بين صفوف المناضلين القُدامى الذين سوف يصبحون مسئولين في النظام السياسي البديل.

18) ينبغي على الشعب **أن يعتمد دائما على قواه الذّاتية**. أما التدخلات الأجنبية، أو المساعدات الخارجية، أو الانقلاب العسكري، فإن هذه الأساليب تعجز على العموم عن الإطاحة بنظام مُستبد، أو تعجز عن تشييد نظام سياسي ديمقراطي بديل. إنها تخلق مشاكل جديدة، دون أن تَقْدِر على حلّ المشاكل القديمة.

19) يجب أن نُعَلّم الجماهير أن أي مطلب من بين طموحاتها، **لا يمكن أن يتحقق إلا إذا دافعت عنه** باستماتة قوية،

ومُتواصلة. ولا يمكن أن يتحقق أي مطلب **إلاّ إذا عملت هذه الجماهير هي نفسها على تحقيقه**. وبدلا من الإستمرار اللانهائي في مطالبة الدولة القائمة بتحقيق مطلب ما، ينبغي على الجماهير **أن تنظّم نفسها لكي تحقّق هي نفسها** ما تطمح إليه. ولا يقدر على السّهر على إنجاز أهداف الثورة الشّعبية سوى الشّعب نفسه.

20) إنجاز ثورة، أو تغيير نظام سياسي ما، لا ينحصر في تغيير الأشخاص الموجودين على رأس الدولة القائمة، وإنما ينبغي **أن يمتدّ لكي يشمل تغيير كل مكونات الدولة**، وكل مكوّنات المجتمع، وفي جميع الميادين، وعلى جميع الأصعدة، بما فيها تغيير الأفكار الشّائعة وسط الشعب، وتغيير القِيَم، والأخلاق، والعادات، والتّصرّفات، والسُّلُوكَات، والمؤسّسات، والعلاقات، والقوانين، إلى آخره.

21) ما هي القوة القادرة على إسقاط نظام سياسي مستبد ؟ أية قوة، ومهما كانت، سواء كانت إقليمًا، أو حزبًا، أو جماعة، أو حتى تحالفًا حزبيا، أو جيشا، أو أية هيئة أخرى مشابهة، فإنها لا تستطيع أن تطيح بنظام سياسي مستبد. **الشعب الثّائر والصّامد، الواعي والمُنظّم، بكل مكوناته المجتمعية**، وبكل قواه السياسية التقدمية، هو وحده القادر على النضال حتى إسقاط نظام سياسي استبدادي وتعويضه بنظام آخر.

تلك هي أبرز القواعد، أو القوانين، التي تُحدّد حظوظ نجاح المُظاهرة الجماهيرية الحاشدة.

عبد الرحمان النوضة[1]

(وحرّرت الصيغة الأولى لهذا المقال بالدار البيضاء، في 19 ماي 2011).

[1] *عبد الرحمان النوضة : مهندس، كاتب، معتقل سياسي سابق، محكوم بالسجن المؤبد، بتهمة المس بأمن النظام الملكي، قضى 18 سنة في السجن تحت حكم الملك الحسن الثاني. وقد سبق لـه أن نشر كراس : "كيف نتجاوز القمع"، الذي أصدرته منظمة "إلى الأمام"، في المغرب، في سنة 1973 .*